السينما والمجتمع

للأستاذ محمد حلمى سليمان

رئيس مراقبة الأشرطة السينمائية

احتلت السينما المكان الأول بين الفنون الجميلة ، وعظمت رسالتها فأصبحت أداة من أدوات التثقيف ولونا من ألوان التهذيب فى الشعوب الناهضة ، واعترفت بفضلها سائر الأمم والحكومات ، فأحلتها المكان اللائق بها بين وسائل التعليم والنشر والدعاية ، وأحسبنى فى غير حاجة إلى شرح ما أدته السينما من دعاية قوية فى الحرب الحاضرة ، فكل ما قد رأى ولمس هذا بنفسه ولا أكون مغاليا إذا قلت ان جنود الاستوديو لا يقلون فى جهادهم عن جنود الميدان .

إذن ، فقد أصبحت السينما بحق ، المعلم العالمى الأول الذى يثقفنا بشتى المعارف ويغذى أرواحنا بمختلف الأنغام الشجية التى تنعش النفوس وتصقل الأرواح ، ولكن لن يكون هذا ولن نصل الى ما نبتغيه ، إلا اذا أفرغ الموضوع فى معان شريفة ومرام حسان يراد بها الاصلاح والتهذيب ، أو الفكاهة المروحة عن النفس المثيرة للعمل .

هذه بعض مرامى السينما ، وهى على هذه الصورة مرآة الأمم تقاس بها حضارة الشعوب وما سمت اليه من النضج الفكرى . لذلك كان لزاما علينا أن نحميها من طغيان الأدب الرخيص الذى يخر سوسة فى أوصال الأمم ، فيهدم كيانها ، ويقتل ذوقها الفنى ويطرح بها الى الوراء .

يجب أن نتكاتف جميعا على محاربة هذا النوع من الكتابة ، ولا أقول الأدب ، لأنه ليس من الأدب فى شىء ، يجب أن ننقض عليه وأن نقف فى وجهه منذ اللحظة قبل أن ينال منا وقبل أن تفلت الفرص السوانح .

إنى لا أستطيع أن أقدر ثمن ساعة أجلسها أمام الشاشة البيضاء ، فأشاهد الأمم والشعوب وأرى بلادهم وأستعرض عاداتهم وأسمع شدوهم وغناءهم دون أن أحرك فى سبيل ذلك قدما أو أركب بحرا .

قلت إن السينما هى المعلم الأول ، وفى اعتقادى أنها هى التى ستربط الشعوب بعضها ببعض فتدنى الشرق من الغرب وتمزج الأسود بالأبيض والأسمر بالأصفر ، وقد لا يمر طويل زمن حتى نرى الأمم جميعا وقد اصطبغت بصبغة واحدة ، وتبادلت الأخلاق والعادات وأخذت كل واحدة منها بما عند الاخرى ، ولن يكون الرمل والسفراء فى هذا الشأن سوى شرائط الفلم .

كان اليابانيون أمة محافظة على قديمها ، متمسكة بتقاليدها وعاداتها وأزيائها ، وكانت ترى فى تشبثها بطابعها الخاص شعيرة من شعائرها الدينية المقدسة التى لا تقبل فيها جدلا

أو مناقشة . كانت هكذا حتى جاءها ساحر منها بعصاه فانتقلت من حال الى حال ، وتحولت من وضع الى وضع ، وصار أمرها عجبا . لم يكن ذلك الساحر سوى السينما .

انتشرت دور السينما فى ربوع اليابان فأمها الشعب ورأى الأهلون كيف يحيا الأوروبيون والأمريكيون ، وكيف يتعاملون فى الحياة وكيف يعيشون ، وماذا يلبسون وما هى طرائقهم فى الجد والعمل أو اللهو والعبث ، وكيف ينشأ الأطفال ويربى الشباب .

رأوا فى كل هذا شيئ يختلف عما عندهم ، وأعجبهم بعض ما فيه ، فأخذوا به وسكلوا سنته وقلدوهم فيما يفعلون . وما فى التقليد من عار مادام فى المفيد الصالح والقيم المتع بل العار فى الجمود والتعلق بالقديم البالى الذى لم يعد يصلح للعصر والبيئة ، وأن الفضل كل الفضل فى اختيار الأفضل من الأشياء وانتخاب الأكرم والأسمى من فنون الحياة .

إن للسينما خطرا عظيما وأثرا فى الحياة الاجتماعية بعيدا ، وقيمة قدرها الأوروبيون والأمريكيون حق قدرها ، فقد أدركوا بثاقب فكرهم وبعيد نظرهم ما سوف تحدثه من انقلاب كبير فى حياة الأمم ، لذلك أولوها عنايتهم وشملوها برعايتهم وخدموها بما فى طوقهم ، ليجنوا منها خير البركات وأطيب الثمرات وجليل الدروس والعظات .

فى عام ١٩٢٨ وضع المؤلف الفرنسى الذائع الصيت " مسيو فرايا " رواية سينمائية عن حياة " جان دارك " ضمنها أعمالها المجيدة ومواقفها الخالدة وشجاعتها الفائقة ووطنيتها المنقطعة النظير ، ثم ختم القصة بمصرعها الدامى المحزن .

أيدرى القارئ كيف قدمت اليه المساعدة ، وكيف تمكن من إخراج قصته الخالدة وكيف نظر الى مجهوده ؟

أنه مؤلف ، ولكن لا بد للقصة من مخرج أو مخرجين ، فماذا حدث ؟ ومن أولئك الذين خفوا سراعا الى معاونته ؟

حدث أن انتخب للاشراف على الاخراج لجنة مؤلفة من عظماء فرنسا ورجالاتها الأفذاذ ووضعت تلك اللجنة تحت رئاسة كردنيال باريس " الأسقف ديبوا " .

وليس مفكروا فرنسا ورجال الدين وحدهم هم الذين ساهموا فى اخراج الرواية إذ أن هناك الجيش الفرنسى أيضا ، فقد اشتركت وحدات منه بأمر حكومة باريس فى تمثيل الموقعة التى خاضت جان دارك غمارها ، واصطلت بأوارها .

ثم لا بد من أمر آخر ، لتخرج الرواية السينمائية طبق ما ورد فى بطون التاريخ وكيف يتم ذلك إلا اذا ظهر الملك شارل السابع ، وإلا اذا أقيمت حفلة تتويجه .

والتتويج كان يتم فى الكنيسة . إذن فليذهب الممثلون والممثلات الى كنيسة " ريمس " وليقم كل فرد بدوره .

وبديهى أن الجيش ورجال الدين ماقدموا تلك المساعدات وماخرجوا على بعض التقاليد الدينية التى لها حرمتها ولها قدسيتها الا لعلمهم أن للسينما مكانة جديرة بالاعتبار .

وليست قصة إخراج "جان دارك" بالفذة فى التاريخ السينمائى وأنى لو شئت أن أروى مبلغ ماتقدمه الحكومات والهيئات المحترمة الى رجال السينما ليتمكنوا من أداء رسالتهم لضاق بى المقام ، غير أنى أشتهى وأنا الغيور على الفن السينمائى الراغب فى رفعه الى أعلا الدرجات وأسمى المواطن لعلمى بخطره وفوائده أقول أنى أشتهى أن أصور السينما فى ثوبها الحقيق ، وأن أصور جلالها وخطرها .

شاء مستر سنول " المخرج السينمائى الشهير فى انجلترا أن يخرج فلما عن بعض الحوادث الحربية التى انتصر فيها البريطانيون فى الأرض الفرنسوية فى غضون الحرب العظمى ، فوضع رواية " مدافع لويس " ثم تقدم إلى الحكومة الانجليزية يسألها المساعدة ، فأعارته مدافع لويس وهى نفس مدافع لويس التى انتصر الحلفاء بها ، كما سمحت له حكومة باريس أن يمثل فريق من الجيش الفرنسى فى نفس الأرض الفرنسوية التى أحرز البريطانيون النصر فيها ، وأحسبنى فى غنية عن القول أن أمثال تلك المساعدات لا تقدم من الحكومات إلى رجال السينما إلا على ضوء أن للسينما رسالة هامة يجب أن تؤديها .

وها نحن نرى الدول العظمى ترحب باشتراك أساطيلها وسلاحها الجوى وجيشها البرى فى كثير من المشاهد السينمائية التى تستدعى هذا الاشتراك . وفوق هذا فأنها لا تلزم الشركات بدفع النفقات .

ولعل فيما ذكرته برهان ساطع وحجة دامغة على فضل السينما ومقامها بين الأمم .

الحج فريضة على المسلمين من استطاع اليه سبيلا ، كم من الناس كانت تهفو نفوسهم إلى رؤية بيت الله الحرام والطواف "بالكعبة الشريفة" ولكن كانت تقصر بهم السبل وتتقطع الأسباب ، فيقضون العمر وفى نفوسهم لوعة وحسرة ! !

غير أن ريحا طيبة جاءتهم ببعض ما كانوا يبتغون ، فاذا بالسينما تقدم لهم مناظر الحجيج وهم يلبون فى عرفات ويسعون بين الصفا والمروة ويسجدون لله حول الكعبة فى "بيته الحرام".

لقد وصف الكتاب وأبدعو فى وصف هذه المشاعر ، ولكن ما كان للرؤية أن تتحقق إلا بفضل السينما ، وما كان لأولى الأمر أن يسمحوا بتصوير هذه الشعائر المقدسة إلا وهم على علم بما لها من خطر وشأن .

ولو أن فنا آخر غير فن السينما حاول اقتحام تلك الأماكن المقدسة أو حتى التطلع اليها من بعيد ، لحيل بينه وبين نفسه التى بين جنبيه .

إذن ، لم تعد صناعة السينما مقصورة على الأستديوهات أو الغابات أو القصور ، بل نفذت الى الأماكن المقدسة والمحاريب الطاهرة حيث الصلاة والتسبيح وحيث الإنشاد والترتيل .

لم يسمع العالم عن مخترع درج نحو الكمال بمثل السرعة التى سابقت بها السينما الزمان ، منذ عشرين سنة كانت السينما فى دور الطفولة ، كانت سبيلا للهو والتسلية ، وكانت الروايات التى تمثل إما مضحكات أو مجارفات ومعامرات أو غراميات وكانت صامتة .

وفى عضون سنة ١٩٢٦ عرض فى مدينة نيويورك فلم "دون جوان" وهو أول فلم ناطق حيث كان الصوت ينبعث إذ ذاك من اسطوانات موسيقية .

وفى شهر يوليه عام ١٩٢٨ ورد فى إحدى المجلات الأمريكية خبر مهم لم يصدقه الكثيرون . فقد جاء فى المجلة أن فى الولايات المتحدة نحو ١٠٠٠ دار للسينما تعد آلات عجيبة لتسجيل الصوت ، ومتى فرغت تلك الدور من مهمتها فسيسمع الذين يترددون على دور السينما أصوات الممثلين كما سيرون حركاتهم .

ولم تلبث الأحلام التى لم يصدقها الناس فى أمريكا أن أصبحت حقيقة ملموسة يراها ملايين الناس فى أنحاء الأرض كافة . تلك هى السينما الناطقة التى تمتع اليوم مشاهدتها .

وما أن انتشرت السينما الناطقة حتى اتجهت الجهود الى إخراج الحوادث التاريخية المهمة والى إخراج القصص والروايات التى وضعها كبار المؤلفين ، فما تركت رواية ممتعة لتولستوى ولا لشارلز دكنز ولا لشيكسبير إلا وأخرجت على الشاشة البيضاء .

لم تعد السينما لهوا ولعبا ، بل معهدا عاليا كبيرا يجد كل فرد فيه اللون الذى يحبه . والجانب الذى ينشده ، والبغية التى يحن اليها ، وان لم يكن ذلك كما أقول ، فحدثونى بربكم عن سر ذهاب الألوف من الرجال والنساء والأطفال إلى دور السينما فى كل ساعة من ساعات النهار وموهن من الليل .

السينما فن ، والسينما ذوق ، ومن حسن الذوق الاعتراف بالجميل و رده ولم أر من يرد الجميل أضعافا مضاعفة كما ترده السينما ، كل من خدم السينما وأخلص لها فى العمل ذاع صيته لا فى بلاده فحسب ، بل فى سائر أنحاء العالم وفى أماكن لعله كان يجهل وجودها .

إن أسماء المخرجين والممثلين تتناقلها الألسن فى كل مكان ويعرفها الصغار والكبار ويخطب ودهم العظماء والدهماء وتتعشقهم الجماهير من رجال ونساء على السواء ، أهناك رد للجميل أبلغ من هذا الرد ؟

سأتحدث حديثا عن أحد أبطال السينما يوم كان هذا الفن الجميل فى مهده ، يوم كان طفل السينما يتحرك غير أنه لا يعرف كيف يحرك لسانه ، وأريد بذلك أن أكشف مرة أخرى عن خطر السينما .

نال رودلف فالنتينو من الشهرة والمجد مالم ينله ممثل فى عصره ، و بلغ حب الرجال له مبلغا عظيما ، أما النساء فكدن يعبدنه عبادة ، إذا جاز هذا التعبير .

وفى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٦ ، توفى محبوب الجماهير فى أحد مستشفيات نيويورك عقب عملية جراحية ، فكان لنعيه رنة حزن ترامت فى مشارق الأرض ومغاربها و بكته النساء

بالدمع الهتون لا الشابات فحسب بل العجائز أيضا ، وكانت السيدة التى تظفر بخصلة من شعره أو سطر من خطه تعد نفسها من أسعد خلق الله وقد أحدث رودلف كل هذا الدوى ولما يبلغ من عمره الثلاثين ، وقد توفى فى هذه السن المبكرة .

وما رودلف فالنتينو إلا مثلا واحدا من عشرات الأمثلة التى نستطيع أن نسوقها فى يسر وسهولة .

والآن أنتقل إلى السينما فى مصر فليس من المعقول أن نتحدث عن بيوت الجيران وننسى بيتنا .

للسينما فى مصر نهضة نستطيع أن نتحدث عنها بفخر نعم أن نهضتنا لم تبدأ مع النهضة العالمية ولم تبلغ بعد شأنها ، ولكنها على صغر سنها لم تتأخر كثيرا عن نهضة العالم بل لاحقتها بخطى سريعة ، وأعتقد أننا عما قريب سنستطيع الوقوف معها على قدم المساواة .

لقد كنا نحن معشر المصريين إذا ما جلسنا الى الشاشة البيضاء ننظر مبهوتين مأخوذى اللب من غرابة هذا الاختراع المدهش العجيب ، ولعل بعضنا كان يظن أن صناعة السينما ضرب من السحر أو لون من الشعوذة إلا أن الدهش لم يلبث طويلا ، والعجب لم يطل أمده

إن مصر المجيدة التى نشرت الحضارة فى العالم ، لا يعجز أبناءها شىء ، وما كان العقل الأوربى أو الأمريكى بأفضل من العقل المصرى أجل لم يكتف المصريون بالنظر الى الشاشة البيضاء ، فراحوا ينشئون تلك الصناعة التى حسب الغربيون أنها ستكون وقفا عليهم .

بدأت صناعة السينما عندنا أو التمثيل السينمائى بعبارة أصح بمحاولات أخفق بعضها ونجح بعضها الآخر وظهر منها شىء واختفت أشياء .

وتاريخ صناعة السينما فى مصر يرجع الى عهد بعيد قد يعجب منه بعض حضراتكم ، ففى سنة ١٩١٧ تألفت فى مدينة الاسكندرية شركة لصناعة الأفلام وعرضها فى مصر ، وكان الأستاذ محمد كريم المخرج المعروف يعمل فى هذه الشركة . وقد وفقت إلى اخراج فيلمين أحدهما اسمه " الأزهار المميتة ، والآخر شرف البدوى " وقد عرض الفيلمان فى أوائل عام ١٩١٨ بسينما شنتكلير بالاسكندرية .

هذا هو ميلاد صناعة السينما فى مصر ، وان كان لا بد للميلاد من وليد فالتوأمان " الأزهار المميتة وشرف البدوى " هما الطفل الجديد ، وسواء بعد قليل كيف نما وترعرع ، وكيف شب عن الطوق ، وكيف اجتاز دور المراهقة ، ثم كيف استوى رجلا كاملا قويا يشق طريقه بخطوات الجبابرة ، وكل هذا بفضل المصريين ، وذكاء المصريين ، وهمة المصريين وأموال المصريين .

و إذا أشرق عام ١٩١٨ نرى أحد الأجانب وقد استعان ببعض ممثلى دار السلام بحى سيدنا الحسين على اخراج أفلام سينمائية .

وأخرج الجماعة فصلا مضحكا أطلقوا عليه اسم " مدام لوريتا " وقد عرض فى سينما الكلوب المصرى ، والفلم عربى ولا ريب وصامت لم يتكلم .

وفى سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ اشترك بعضهم فى تمثيل فصل سينمائى مضحك باسم " الخاتم المسحور " وقد عرض فى مدينة الاسكندرية .

وما وافى عام ١٩٢٣ حتى أدرك المعنيون بشؤون السينما من المصريين أن طلاسم السينما قد حلت ، ورموزها قد قرئت ، ففى نفس هذا العام اشترك الأستاذ على الكسار والأستاذ أمين صدقى فى اظهار فلم من فصلين ، أرأيتم كيف أصبح الطفل يدرج بعد أن كان يحبو ؟

أظهر الأستاذان فلما من فصلين باسم "الخالة الامريكانية" .

كانت كل هذه محاولات للتمثيل والسينما فى مصر ، أى ظهور ممثلين مصريين فى أفلام سينمائية . أما صناعة السينما على الوجه الصحيح ، والفلم المصرى الطويل الذى يقوم على قصة مصرية مسلسلة الحوادث ، فهو على ما أعرف فلم "ليلى" وكان عرضه فى سينما متروبول عام ١٩٢٧

وفى سنة ١٩٢٨ ، ظهر فلم "غادة الصحراء" للسيدة آسيا ، وقد عرض فى سينما متروبول أيضا .

وفى نفس هذا العام رأينا على الشاشة البيضاء رواية "زينب" لمخرجها الأستاذ محمد كريم ؛ وبعد عام واحد أى فى سنة ١٩٢٩ ؟ ظهر فلم "بنت النيل" للسيدة عزيزه أمير ، التى أظهرت أول فلم مصرى طويل ، وكان عرضه فى سينما الكوزمو جراف الامريكانى بالأسكندرية .

وكانت هذه الأفلام صامتة ، ومنذ ذلك الحين لم تعد الأفلام خرساء كما أنها لم تعد محاولات ، بل أصبحت قصصا كاملة ذات شخصيات ناطقة ، كان أول فلم ناطق هو فلم "أولاد الذوات" للاستاذ يوسف وهبى .

تتابعت بعد ذلك الأفلام المصرية فى فترات تطول أو تقصر حتى وصلت إلى ما هى علية الآن ؛ وبلغ الانتاج المصرى مبلغا لم يكن أحد يتوقعه فى هذا العدد القليل من السنين حتى لقد بلغ من اهتمام المصريين بأفلامهم أن انصرفوا شيئا عن الأفلام الأخرى ، وأقبلوا فى شغف إلى مشاهدة الشخصيات التى تمثل حياتهم وتنطق بلغتهم .

بالضرورة ؛ كانت الأفلام المصرية فى بدايتها ، ضعيفة فى موضوعها ، وفى اخراجها وفى فنونها ؛ إذا كانت تنقصنا فى ذلك الوقت عوامل كثيرة .

لم تكن القصة السينمائية قد ولدت ؛ حتى الاقتباس لم يكن قد وقف على قدميه ؛ وكان ينقصنا الفنيون الذين لهم خبرة ، ودراية بصناعة السينما ودقائقها ، لذلك استحق مجهودنا الفخر لأنه مجهود عظيم إذا قيس بوسائلنا المحدودة .

إذا قيل إن الرجل العصامى هو الذى كون نفسه بنفسه ، فان صناعة السينما فى مصر أحق شيء بهذه التسمية ، فقد كونت نفسها بنفسها . فاذا أحصينا عدد الذين سافروا من عندنا لتعلم هذه الصناعة فى الخارج ، وجدناهم قلة لا تتناسب وهذا المجهود الكبير الذى تنتجه مصر ، ويعرض فى الأقطار الشرقية جميعها .

لقد أصبح الفلم المصرى الآن على خطوات متقاربة من الفلم الأوربى والأمريكى ، والفضل فى ذلك راجع إلى أهل هذه المهنة وجنود هذه الأمة ؛ فهم أول من حمل المشعل ودخل حلبة السباق ، وكانت مهمتهم شاقة ، فقد دخلوا السباق متأخرين ، ويطلب منهم أن يكونوا مع السابقين ، وهم باذن الله لواصلون .

فسيروا على بركة الله قدما وأخرجوا لنا من الأفلام ما يمثل مجد مصر ، أخرجوا لنا من المشاهد ما يضع حدا لما يصورنا به بعض ذوى الأغراض ، فان فعلتم وما إخالكم الا فاعلين تكونوا قد اديتم لبلادكم بما تنشرونه من الدعاية القومية والثقافة المصرية ما يجعل الأجانب يؤمنون فى يسر بقوة مصر وعظمتها . أسمعوهم أصواتكم ، وقولوا لهم أنكم أصل المدنية وأن بلادكم بلاد العلم والعرفان ولا سبيل إلى ذلك إلا بالابتعاد عما فيه المجون الفاضح والخيال السقيم ، ونبذ الأدب الرخيص المكشوف .

فان السينما كما قيل بحق هى السلاح الأقوى ؛ فاحملوا هذا السلاح المبارك ، وقدوا به غياهب الجهل وحطموا سياجه البالى المتزق .

سيروا على بركة الله واعملوا وتنافسوا وسيسجل التاريخ أسماءكم بحروف من نور فى تاريخ مصر الحديث ، وسيقول فيما يقول هؤلاء هم طليعة ميدان السينما الذين وضعوا الأساس وعاونوا على تقويم النهضة المصرية ودعموا بناءها ورفعوا من ذكرها .

محمد حلمى سليمان

أرى طوفان هذا الغرب يطغى
وأهل الشرق سادتهم نيام
فان لم يأتنا نوح بفلك
على الإسلام والشرق السلام

شوقى